و كذلك ابن شمعة شيخ الجزارين وخلافه ، ومعهم طبول وزمور والمدافع . . . الى ان وصلوا الى الازبكية فنزلوا بيت محمد على باشا ، وحضر المشايخ والاعيان وقرأوا المرسوم » . وبذلك تم انتصار الشعب ، واخذ يتطلع الى الحكم والسياسة . وما كان ذلك ليرضى الجنود الاتراك الذين تعودوا ان يكونوا سادة غير منازعين . فلما انتهى النضال الكبير بدأ التنافس والتنازع بين أهل مصر وبين الجنود . وكان حجاج ممثل ذلك التنازع والتنافس . قال الجبرتى فى بعض يومياته بعد ذلك « وقع بين حجاج الخضرى والعسكر مقاتلة جهة طيلون وقتل بينهم اشخاص ، فرأى أهل الحكم أن يعودوا بذلك الشعب الى هدوئه الأول ، وسكينته القديمة ، فبدأوا ينزعون منه السلاح بعد أن انقضت الحاجة الى حمله . فغضب الناس لذلك حينا ، غير انهم أرغموا على الاذعان فأذعنوا . ولكن نفس حجاج الخضرى لم تذعن بتلك السهولة بل قاوم وناضل وكابر . قال الجبرتى فى وصف ذلك .

« وفيه بنى حجاج الخضرى حائطا وبوابة على الرميلة عند عرصات الغلة » ولكن ايستطيع فرد أن يقاوم دولة ولو كان من بناتها ؟ لا ، فان حجاجا لم يستطع الا الهروب من القاهرة التى جال فيها تلك الجولات ، ولجأ الى جيش الالفى بك ، وكان عند ذلك مرابطا بجيشه بترقب الغرر ، ويتحين الفرص ، جاثما طورا عند إطفيح بالصعيد ومرة عند دمنهور بالبحيرة .

غير ان المقام لم يطب لذلك البطل المصرى فى جيش الالفى بك وكيف يطيب له المقام : وهو ابن البلد الصميم ، يقيم بين جيش من المماليك يتسخون عليه بأنوفهم ، وهو المعتز بكرامته الذى يرى نفسه مثيلا وكفؤا لهم ؟ قال الجبرتى فى وصف ذلك :

« وفيه أيضا حضر حجاج الخضرى الرميلاتى الى مصر ، وقد كان خرج من مصر بعد حادثة خورشيد باشا خوفا من العسكر وذهب الى بلده بالمنوات . ثم ذهب عند الالفى ، وأقام فى معسكره الى هذا الوقت ، ثم ان الالفى طرده لنكتة حصلت منه ، فرجع الى بلده ، وأرسل الى السيد عمر مكرم فكتب له أمانا من الباشا ، فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له فى خطته بأنه على ماهو عليه فى حرفته وصناعته ووجاهته بين اقرانه . »

غير أن نفسه لم تكن لترضى بعد ذلك بالبقاء فى صفوف العامة الذين قضى عليهم أن يعودوا إلى ازوائهم واكتفائهم بالعيش العادى ، فاختفى مرة أخرى من القاهرة ، ولا ندرى بعد ذلك له مقراً . أقتله الجنود انتقاما من كبريائه ؟ أهرب إلى وطن غير مصر ؟

لسنا ندرى غير ما قاله الجبرتى « وفيه اختفى حجاج الخضرى أيضا بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر » . اللهم ان فى صفوف الابطال أفذاذاً لم يسمهم التاريخ ولم تعهم ذاكرة الأحفاد ليؤدوا اليهم ما يستحقون من الاجلال . . . ولئن كان حجاج الخضرى أحد هؤلاء ، فقد حفظ لنا المؤرخ المصرى اسمه فى عرض حديثه ، وهو يمر به مرورا سريعا . غير أنى اتجه الى ذكراه بقلب خاشع تملؤه دعوات التر- ، تتردد فيه أسمى عواطف الاجلال والتبجيل .

ألا يستطيع مصرى أن يقول عند قراءة سيرة حجاج إن فى المصرى أنفة وعزة ؟ وإن له نخوة وسطوة ؟ وإن بين جنبيه همة وقوة . . . ؟

محمد فريد أبو حديد

والبيئـــة أيضا . . .

أما لهذا الليل من آخر . . . ؟

للدكتور محمد عوض محمد

من الموضوعات التى لابد أن تمر بناجيا ـ الموازنة بين الوراثة والبيئة . هذا الموضوع بمثابة المطية الذلول التى لايتحرج أضعف الناس وأصغرهم من أن يمتطيها . ثم يخيل إليه الوهم أنه أضحى فارسا من كبار الفرسان ! ولقد طالما نشاهد صغار الناشئين وقد جلسوا على المنابر - ووقف هذا لينتصر للوراثة ويراها كل شىء . وذاك لينتصر للبيئة ويدعى لها كل شىء ، وقد لايكون للمتكلمين بعد إلمام صحيح بمعنى الوراثة او البيئة .

ولا بأس بهذه الأشياء ، ما دام يراد بها العبث البرىء ، وتمرين الطلاب على الحوار - ولكن كلام الاحداث فيما يجهلونه قد يغدو ويا للاسف ـ عادة تلازمهم مدى الحياة . وقل أن يوجد بين الموضوعات مايتطلب الدقة فى الفهم ، والتأنى فى الحكم كموضوع الوراثة والبيئة .

فأما الوراثة فيراد بها مايرثه الناس عن آبائهم وأجدادهم من الصفات التى اختصت بها سلالتهم التى ينتمون اليها . فتأثير الوراثة هو تأثير الجنس والسلالة . والقائلون بالوراثة يزعمون ان هذا الشعب راق لانه من جنس راق ، والآخر منحط لان جنسه منحط

وأما البيئة فهي ماينشأ بينه الانسان من أرض وسماء ، وهواء وماء ، وجبال وأنهار ، وصحارى وبحار وماإليها . ولهذه في نظر القائلين بالبيئة الاثر الاكبر في رفع قوم وخفض قوم ، واعزاز شعب واذلال آخر .

ولقد حاولت في كلمة سابقة ان أضرب بعض أمثلة للضلال الذي يخبط فيه كثير من الناس حين يتكلمون عن الاجناس في غير تدبر ولاحذر . وهممت ان أكتب كلمة ثانية لأضرب أمثلة أخرى للضلال الذي يخبط فيه الناس حين يتكلمون عن تأثير البيئة ثم جاءت كلمة الاستاذ حسن جلال فحفزتني إلى المضي في هذا السبيل

ان في شرائع كثير من الدول ما يضمن مجازاة من يمارس الطب اذا لم يكن من أهل الطب ، ولكن ليس في الشرائع — ويا للاسف — ما يكفل معاقبة من يمارس التاريخ وليست له دراية بالتاريخ ، أو يمارس الجغرافيا وليس له كبير المام بالجغرافيا ، وهكذا الحال في كثير من فروع العلم . فاستطاع ان يقتحم هذه الميادين من ليست لديه العدة اللازمة لها

وهكذا رأينا اناسا يحكمون بين الاجناس ويرفعون جنسا على جنس ، وسلالة فوق سلالة ، دون أن يأخذوا العدة لمثل هذا الحكم بدراسة الشعوب والاجناس في كل مكان وفي كل زمن (١)

كذلك ما ينبغي لأحد أن يحكم في تأثير البيئة : في تأثير الهواء والماء والارض والسماء في أخلاق الناس وطباعهم ، الا اذا درس كل بيئة على سطح الأرض ، وقارن بين المتشابه وغير المتشابه ، ووازن بين المتفق والمختلف ، بحيث يستطيع أن يدرك ما اذا كانت البيئات المتشابهة قد أكسبت أهلها خلالا متشابهة . وأن هذا التشابه سببه طبيعة الاقليم لا أي سبب آخر قد يكون خافيا .

ومع هذا فان الذين صناعتهم دراسة البيئات الطبيعية هم عادة أزهد الناس في اصدار تلك الأحكام القاسية الشاملة كأن يقال مثلا : إن سكان هذه البلاد جبناء لأن أرضهم سهلة منبسطة !

(١) ذكرنا في العدد الماضي الرأي الذي ذهب اليه بعض الكتاب في تفضيل الجنس التيوتوني على سائر السلالات . وكان من المضحكات الطريفة أن ألفى الأستاذ يدين في الجمعية الجغرافية ثلاث محاضرات عن حالة أوربا بعد سقوط الدولة الرومانية وجاء في كلامه أن بلاد الشرق الأدنى مثل سوريا ومصر كانت تبعث الى أوربا سلعا ثمينة مثل الحرير وورق البردي وفي مقابل هذه السلع كانت أوربا ترسل عبيداً وإماء من أبناء وبنات هذه الأجناس الشمالية بالمئات . فهذه السلالات التي يدعى لها اليوم التفوق على سائر الأجناس كانت من الهوان بحيث تباع بيع السلع

وسكان ذاك القطر بخلاء لأن بلادهم جبلية ! وأهل هذا الاقليم بلهاء لأن هواءهم حار رطب : وأولئك كذابون حانثون لان مناخهم متقلب لا يستقر على حال .

ان هذه الآراء لها للأسف صورة خلابة تسترعي الذهن وتلفت النظر . وفي عالم سكانه لا يلذهم أجهاد الفكر وانعام النظر فيما يلقى اليهم من الكلام — كثيرا ماتسير تلك الأحكام وتشتهر بين الناس وترسخ زا . . . وقد لا يكون في بعض هذه الأحكام ضرر كبير . ولكن الخطب المؤلم ماذكره الاستاذ حسن جلال من أن أناسا يقال لهم أنتم اذلة لأن هواء بلادكم يقضي بهذا ، وقد كتب عليكم الذل سرمدا الى يوم القيامة ، فيصدقون مايقال لهم ويؤمنون به . مع انه ليس في العالم أمة إلا ويصح أن يقال لها مثل هذا الكلام في وقت من الأوقات .

* * *

كتب أحد الجغرافيين الامريكان ، واسمه إلسوورث هنتنجتن يصف تأثير الهواء في الناس فقال : إن المناخ الذي يلائم حياة الانسان أكثر من سواه ، ويساعد على النشاط والجد والرقي في سلم الحضارة هو مناخ بلاد اليابان (في الجزء الجنوبي منها) . وبعض جهات الجزر البريطانية . ثم تكون ملاءمة كل إقليم آخر للانسان بقدر مابينه وبين هذه الجهات من المشابهة .

هذا ماذكره ذلك الكاتب الجغرافي العصري ، ومن المفيد أن نقارن هذا الحكم بما ذكره ابن خلدون في مقدمته عن الأقاليم السبعة (٢) وملاءمتها للانسان . وقد ذهب هذا الكاتب الاجتماعي العربي الى أن الأقليم الرابع هو أطيب الاقاليم جميعا ، وأكثرها ملاءمة للعمران ، وسكانه أرقى حضارة من سكان سائر الأقاليم . أما مايليه شمالا وجنوبا فدونه منزلة ، وما يلي ذلك أقل صلاحا نظرا لشدة الحرارة أو لشدة البرودة . .

والاقليم الرابع الذي عناه ابن خلدون هو الواقع بين دائرتي العرض الثلاثين والاربعين . . وفيه الاندلس وبلاد المغرب وايطاليا

(٢) في عرف الجغرافيين القدماء تبدأ الأقاليم من خط الاستواء الى درجة العرض السبعين شمالا . فمن خط الاستواء الى درجة عشرة الاقليم الأول ، ومن الدرجة العاشرة الى العشرين الثاني ، ومن العشرين الى الثلاثين الثالث . ومن الثلاثين الى الاربعين الرابع . وهكذا الى السابع الذي ينتهي عند درجة العرض السبعين وليس وراءها عمران . كما أنه ليس وراء خط الاستواء من جهة الجنوب عمران .

ومصر وسوريا والعراق وايران . وقد ذكر ابن خلدون صراحة أن الاقليم السادس قليل العمران . وهواؤه لا يبعث على الحضارة . مع ذلك ففى هذا الاقليم السادس بالذات يقع معظم بريطانيا العظمى علام يدل هذا كله ؟

إنه يدل دلالة صريحة على أن كلا الكاتبين لم يبن حكمه على فهم صحيح لطبيعة الهواء وتأثيره فى العمران . بل كل مافعله أن نظر الى العالم الذى يعيش فيه ، والى الأفكار المختلفة التى نالت فى عصره حظا وافراً من الحضارة . وحكم بأن هواءها أحسن الأهوية ، وأقليمها أطيب الأقاليم . رأى ابن خلدون أن العمران فى عصره واقع فى بلاد كلها فى الاقليم الرابع ، فحكم بأنه أكثر الاقاليم ملاءمة ، ورأى هنتنجتون أن انكلترة واليابان فى مقدمة دول العالم اليوم فحكم بأن هواء انكلترة خير هواء . ومتى أتيح للأقطار الاستوائية — أن تنهض قريبا أو بعيداً ، فسيرى الناس ابن خلدون آخر ينادى بكل جرأة أن الأقطار الاستوائية ، المغضوب عليها فى الوقت الحاضر — هى أبدع وأزهى وأزهر الأقاليم ذات الحضارة والعمران .

ومن غريب أحكام ابن خلدون ماذكره فى حكمه على أهل السودان بأنهم موصوفون بالخفة وكثرة الطرب وحبهم للضحك بسبب حرارة الهواء ، ولو بقى ابن خلدون الى وقتنا هذا لأدهشه أن يعلم أن من أكثر الناس خفة وضحكا الاسكيمو سكان الجهات القطبية !

وشبيه بهذا ماذكره المقريزى فى حكمه على أهل مصر مما ذكره الاستاذ أحمد أمين : من أن البيئة المصرية قد أثرت تأثيرا سيئا فى كل ما بمصر من إنسان وحيوان . ومما ظنه حجة علينا أن الأسد لايعيش فى مصر . وهذا صحيح . ولو كان الأسد فى مصر يوما من الأيام لكان العمران وحده كفيلا بابادته والقضاء عليه كما أيد التمساح من نيل مصر . ولكن من يخبر المقريزى رحمه الله بأن بلاد الانكليز ليس فيها أسد ، وليس فيها من الوحوش الضارية سوى الانسان . وكذلك الحال فى الجزء المتمدن من أمريكا وفى معظم أوربا ؟

تلك العبارة البادية السخف هى من فصل طويل للمقريزى . ملؤه بالعبارات الكثيرة فى ذم مصر وهوائها ومائها وأهلها وفى ذم اخلاقهم وأجسامهم وطبائعهم . . وكلها عبارات لاتزيد قوة على العبارة السالفة .

ولقد يجوز لكاتب أن ينقد أخلاق المصريين وأن يرميهم بصفات الضعف إن شاء ، أو الجبن أو الانهماك فى الشهوات . ولكن ليس لأحد أن يرجع شيئا من هذا الى طبيعة الأرض أو الماء أو الحرارة . فيضل ويضل . وأولى بهؤلاء القضاة أن يبدأوا بدراسة كل اقليم وطبيعة كل بلد من بلدان العالم . إذن لعلموا أن كثيراً مما يتهم به أصل مصر — صدقا أو كذبا — شائع فاش فى أقاليم تختلف عن مصر كل الاختلاف ، وهنالك أقاليم لا يقل هواؤها حرارة عن هواء مصر ، وأرضها سهلة كارض مصر ، تعيش فيها شعوب لا يشك أحد اليوم فى رقيها وتفوقها .

***

ومن الأمثلة الشائعة فى تأثير البيئة مايقال من أن المناظر الطبيعية تخلق الشعراء وتوحى بالشعر والموسيقى . وقد زار أحد كتاب الامريكان بلدة ستراتفورد حيث ولد شكسبير ، فصور له الخيال الجامح أن مثل هذه البيئة — والتى ليس لها فى الواقع مايميزها — هى الجديرة بأن توحى الى رجل مثل شكسبير تلك الدرامات الخالدة ، والقصائد الرائعة . . ولولا جهل هذا الامريكانى لعلم أن شكسبير لم يقض فى هذا الاقليم غير زمن الحداثة . ولم يكتب فيه شيئا بل قضى معظم حياته فى لندرة تلك البلدة المظلمة التى لا يمكن أن توحى من تلقاء نفسها بشىء جميل .

واذا سلمنا بأن المناظر الطبيعية الجميلة تثير الخيال وتبعث الشعر فى النفوس ، فاننا نسلاقى من غير شك صعوبة عظيمة فى تعليل تلك الظاهرة الغريبة وهى قلة نبوغ الشعراء الفحول فى سويسرة التى لايضاهيها فى أوروبا بلد فى أنهارها الجارية ، وجبالها الشامخة ، ومناظرها الرائعة .

أليست الحقيقة اننا نتورط كثيراً ، وتندفع فى الاستدلال والاستنتاج ، ونقضى بأحكام شاملة واسعة من غير حذر ولا تدبر ، بل وأحيانا من غير فهم لما نريد الخوض فيه ؟!

مجموعة السنة الأولى للرسالة

لدى الادارة مجموعات مجلدة من السنة الأولى للرسالة تباع بخمسة وثلاثين قرشا غير أجرة البريد